المعلمة بين ضيق النظرة الاجتماعية وقسوة الخطاب الرسمي

على القوانين أن تحترم من وضعت لأجلهم

مريم بركات

كنت في المدرسة طالبة مجتهدة ومواظبة على أداء واجباتي، أسعى إلى أن أكون عند حسن ظن والدي بي. أذكر كيف كانت معلمة اللغة العربية والعلوم تعطي درساً كاملاً وهي تجلس على الكرسي، ربما شاهدت تجربتين أو ثلاث تجارب علمية في العلوم خلال رحلتي في المدرسة بدءاً بالأساسية وانتهاءً بالثانوية، ولكن على الرغم من ذلك، كنا نُقبل على التعلم وعلى ودروسنا دون تذمر، قد يرجع ذلك إلى عدم كثافة المناهج بشكل كبير كما هو الحال الآن ... لا أدري.

من الأشياء التي أتذكرها عدد طالبات صفي في الحادي عشر علمي، إذ كان أربع عشرة طالبة، وكنا جميعاً على مستوى ممتاز.

أذكر أن معلم الفيزياء في الثاني عشر شرح لنا موضوعاً لم أتمكن من فهمه في الحصة، حيث كان معلماً مميزاً في مادته، لكن كانت لديه مشكلة إيصال المعلومة لطلبته. عندها رجعت إلى البيت و لم أتناول غذائي، وجلست مع نفسي لحل مشكلة هذا الدرس حتى تمكنت من تحليل المادة وفهمها، فأين نجد ذلك الآن في طلبتنا، على الرغم من كل ما يتلقونه من أساليب حديثة في التعليم؟

ما سر تراجع إقبال الطلبة حيال المدرسة والتعلم؟ هل المشكلة فينا كمعلمين محبطين من واقعنا، أم بالمنهاج الكثيف، أم في دافعية الجيل نحو التعلم والثقافة، أم مشتتات الحياة؟

ما أن انتهيت من الثانوية العامة حتى تملكتني الحيرة في اختيار التخصص والجامعة الملائمة، وكان لربما من حسن الطالع أن يقع الاختيار على جامعة القدس – أبو ديس (كلية العلوم والتكنولوجيا) ولأدرس الفيزياء كتخصص رئيس، والرياضيات كتخصص فرعي. كنت وقتها ألاحق ميولي للمادة التي أحب.

كانت رحلة الدراسة جميلة حقاً على الرغم مما اكتنفها من متاعب، لكن كنت أتجاوزها بمزيد من الجد والمثابرة، وكان أن تحققت الآمال وتكللت الجهود بالنجاح والتخرج، ولا أنكر أنني تنفست الصعداء وأحسست أن عبئاً ثقيلاً أزيح عن كاهلي. ولكن الرحلة لم تنته بذلك، و لم ترسُ السفينة على شاطئ الأمان بعد.

بدأت رحلة البحث عن العمل، أخبرت أهلي أنني سأبقى في سكني في أبو ديس للبحث عن عمل، لأجل الخبرة،

وبدأت بالتجوال في مدينة القدس للبحث عن عمل في إحدى المدارس، إلى أن استقر بي المطاف في مدرسة أم عمارة المازنية في وادي الجوز، وكانت للمرحلة الأساسية من الأول للسادس، ودرّست فيها مادة الرياضيات، وكانت تجربة جميلة تعلمت كيف يمكن التعامل مع الأطفال، وبخاصة الأول الابتدائي، وكانت معظم الطرق المتبعة من خلال اللعب. كنا في بعض الأحيان نخرج من الصف ونذهب إلى مرافق المدرسة المختلفة، قد يكون على الدرج مثلاً لإعطاء درس التصاعدي والتنازلي للأعداد، لكن كنت دائما أحاول أن أكتسب الخبرة من الزميلات العزيزات بشكل مستمر، وبخاصة أنه لم نتخرج من الجامعة وقد تعلمنا أساليب التدريس، ثم انتقلت في السنة التي تلتها إلى مدارس الأقصى الثانوية في ضاحية البريد، بالقرب من رام الله، ودرست فيها مادتي العلوم والفيزياء للصفوف من الثامن حتى الحادي عشر العلمي. كنت في بداية تعليمي للمرحلة الإعدادية والثانوية أجد مشكلة في بعض الأحيان في كيفية معالجة المعلومات بطريقة أشعر معها أن المعلومات تذوتت فيهن، حتى ونحن نعمل في مجال العلوم، وحتى مع إمكانية التوضيح من خلال التجربة والملاحظة والمحاولة والخطأ. أنا أؤمن أنه لا بد ان يكون لدى المعلمة مهارات واسعة في كيفية تمكين الطالبات من معالجة المعلومات، وكيفية دفعهن واستثارتهن نحو تساؤلات تفتح لهم آفاقاً واسعة للتعلم والتدبر، لهذا خضعت دورات تدريبية، وتعرفت على مركز تطور المعلم في رام الله، وشاركت معه في العديد من الأنشطة.

في العام التالي، تقدمت بطلب توظيف إلى مديرية التربية والتعليم في منطقة رام الله، وقبلت في مدرسة عابود الثانوية، ولكن واجهت مشكلة في الحصول على سكن في رام الله، واضطررت أن أتنقل بالمواصلات من بلدتي عنبتا في طولكرم في الخامسة صباحاً وأعود إليها الخامسة مساءً.

وقد ألقي على عاتقي تدريس مادة العلوم للصفوف من السابع حتى التوجيهي الأدبي، ما زاد علي عبء التحضير، لكن بحمد الله لم يطل هذا الأمر إلا شهراً واحداً، حيث تلقيت اتصالاً من مكتب الوكالة بتعييني في مدرسة بدو الأساسية في رام الله، وكانت بدو بالنسبة لي أقرب من عابود، وبعد دراسة مستفيضة للأمر قررت أن أترك مدرسة الحكومة (عابود) إلى مدرسة الوكالة (بدو). درّست في مدرسة بدو سنة واحدة تلقيت خلالها دورة تأهيل للمعلمين (EB/bb)، وكانت لمدة سنة كاملة، وهذا زاد من اطلاعي على أساليب مختلفة للتدريس.

في السنة التي تلتها، تم نقلي إلى منطقتي، ولكن إلى مدرسة قلقيلية، وهي بعيدة جداً عن عنبتا، و لم تكن هذه هي المشكلة الوحيدة، بل إنني سأدرّس فيها مادة التربية الإسلامية للصفوف من السادس حتى التاسع، عندها قررت أن ألتحق بدورة في تجويد القرآن في بلدتي لأستطيع تدريس مادة التجويد إلى حين إيجاد حل من قبل إدارة الوكالة، لكن لم يستغرق الأمر إلا شهراً واحداً وتم نقلي إلى مدارس مخيم طولكرم لأدرّس مادة اللغة العربية والعلوم والرياضة، وكان زوجي يعينني في تدريس مادة اللغة العربية للصف الرابع الأساسي، لأنه معلم للغة العربية، وقد قمت بتدريسها باقتدار بشهادة موجه اللغة العربية، ولكن لا أخفي عليكم كنت أتعب كثيراً في تحضير المادة وأسال زوجي كثيراً عن المادة وكيفية تعليمها، وطريقة عرضها للطالبات، وكنت دائماً أشعر أن هذه مسؤولية كبيرة ملقاة على عاتقي، وأشعر أنه لا بد أن هناك أموراً يجب التغلغل بها في المادة أنا لست على إحاطة وإلمام بها.

ثم استقر بي الحال في مدرسة بنات نور شمس التي ما زلت فيها على رأس عملي. في هذه المدرسة قمت بعمل معارض علمية واشتركت بمسابقات في إلهام فلسطين، الأولى في قصة علمية في الكيمياء، وأحرزت فيها نجاحاً على مستوى المديرية، والنجاح الأهم في هذا المجال أنه بعد تطبيق القصة في تعليم الكيمياء لاحظت ارتفاعاً في مستوى تحصيل الطالبات في وحدة الكيمياء، وذلك من خلال عمل بحث إجرائي في مدى فاعلية هذه القصة على مستوى تحصيل طالبات الصف السابع الأساسي في وحدة الكيمياء.

ثم شاركت بمشروع القاعات التخصصية في المدرسة، كعضو في الفريق القيادي للمشروع والمكون من مديرة المدرسة، ومعلمتين كنت إحداهما، وكنا من ضمن المبادرات التي فازت على مستوى الوطن.

أما الآن، فقد تعرفت على مؤسسة عبد المحسن القطّان، وشاركت معها في مشروع بلدات وحكايات، وكان مشروعاً ممتعاً وجميلاً، وأنا الآن ملتحقة بالمدرسة الصيفية التي ينظمها مركز القطان للبحث والتطوير التربوي على مدى ثلاث سنوات (الدراما في سياق تعليمي)، ووجدت فيها بداية جميلة لفكرة الدراما في التعليم، وكذلك نؤسس لمنتدى تعليمي في منطقة طولكرم.

وقد شاركنا في الأيام القليلة الماضية في ورشة عمل بعنوان الرسوم المتحركة في التعليم (Animation) التي ستستمر لمدة سنة ونصف. وقد ظهرت الفائدة جلية على معظم المشاركين.

لكن لو سئلت الآن ما رأيك بمهنة التدريس بعد هذه الرحلة؟ سأقول: أنا لا أشعر بالرضى حيال النظرة إلى مهنة التعليم، المعلم يجتهد ويعمل ويحسن ولا نرى أي تغير على حاله، هو مجرد معلم في مدرسة يتقاضى راتباً بسيطاً قد لا يفي باحتياجات أسرته، أو يضمن حياة كريمة لها، أسوة بباقي الأسر الميسورة التي لا يعمل رب الأسرة فيها في مهنة التعليم.

هل تم التفكير مرة في أن تعطى الفرصة لهذا الذي يعلم أولاد الناس جميعاً، أن يُعلم أولاده بتسهيلات معينة في الجامعات، أو تم التفكير بأنه إذا أنجز أمراً مهماً في عمله أن يكافأ، ولا ينسب العمل إلى غيره من المسؤولين؟ هل أعطي المعلم أدنى الحرية للتعامل مع الحشد العظيم من المعلومات المطلوب حفظها من قبل الطالب في هذا المنهاج المصمم لتجهيل الطلبة وتنفيرهم من العلم والإقبال عليه؟ هل يجد المعلم وقتاً كافياً ليعمل بطريقة ومنهجية علمية للوصول بالطلبة إلى القدرة على التفكير والتحليل وحل المشكلات أمام هذا الزخم بالمنهاج والمحاسب على عدم إتمامه؟

جميل أن نعمل ضمن دائرة لها قوانينها وأنظمتها ولكن ليس من الجميل أن لا نُحترم ضمن هذه الدائرة .

انتقلنا في السابق من صورة المعلم المتسلط إلى صورة المعلم المهان في المجتمع، عندما شاهدت أحد الأولاد في السوق يذهب ليسلم على معلمه الذي يعمل على بسطة بعد دوامه ليستطيع أن يلبي متطلبات حياته وأسرته.

أريد منكم أن توجهوا سؤالاً واحداً إلى كل من المعلم والطالب وولي الأمر (هل تحبون المدرسة؟) سيكون الرد واحدا. وإذا ما رجعنا إلى دائرة المنهاج تجعلنا نعمل كالذي يحمل كيساً يملؤه ويملؤه دون اكتراث بسعته وقدرته على الاستيعاب، فنجد بعد ملئه كاملاً أنه مثقوب ويفرغ مما فيه في وقت قياسي.

حتى الآن أبحث عمن يحترم المعلم ومهنته، أبحث عن طالب يحب العلم ويقبل عليه، لا لرغبة في العلامة بل حباً للعلم ذاته.

مدرسة بنات نور شمس الأساسية